مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 13 ع 02.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الفكر العلمي لدى أوغست كونت من الوضعية إلى "دين الإنسانية"

Thought at Auguste Comte Scientific: From Positivism to "Religion of Humanity"

د. كريمة بريكي D. Karima Briki karimaphilosophie@gmail.com	فلسفة	جامعة تونس .المعهد العالي بزغوان

DOI : 10.46315/1714-013-002-006

الإرسال: 2024/01/19 القبول: 2024/03/14 النشر: 2024/06/16

**

Abstract:

This article addresses the invitation of the French philosopher Auguste Comte to establish what he called the "human religion, this is through the availability of objective scientific requirements that make it scientifically possible to talk about this religion. From the epistemological point of view, this new religion inevitably transcends everything that is theological metaphysical, Realistically, it does not impede the establishment of positive science.

Since the philosopher curriculum is scientific -Epistemological, it aims to apply science to human phenomena Theology's path differed from that of positive thought. The first takes off from man to reach the universe, while positive thought seeks to understand the rationality of man and his attempt to emerge from the phenomenal of the universe.

Keywords: Religion, Humanity, Cosmology, Theology, Epistemology

ملخص:

تناول هذه المقال دعوة الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت لإنشاء ما أسماه "دين الإنسانية، وذلك من خلال توفر المتطلبات العلمية الموضوعية التي تجعل من الممكن علميًا التحدث عن هذا الدين.ومن وجهة النظر المعرفية، فإن هذا الدين الجديد يتجاوز حتمًا كل ما هو لاهوتي ميتافيزيقي، ومن الناحية الواقعية هذا الدين لا يعيق إنشاء علم وضعي. ذلك أن منهج أ. كونت عقلاني -ابستمولوجي هدفه التطبيق العلمي على الظواهر الإنسانية، وأن المسار الذي انتهجه الفكر اللاهوتي يختلف عن مسار الفكر الوضعي. الأول ينطلق من الانسان للوصول الى الكون، في حين الفكر الوضعي يسعى الى الفهم العقلاني للإنسان ومحاولته الانطلاق من ظواهر *الكون*.

الكلمات المفاتيح: الدين؛ الإنسانية؛ الكوني؛ اللاهوت ،الإبستيمولوجي.

**

***- مقدمة:**

قد يكون غريبا عن أفق نظر الفيلسوف أن يضطلع بمهمة تأسيس " دين للإنسانية" جمعاء وقد تتضاعف هذه الغربة وتتعمّق عندما يكون هذا الاضطلاع شأنا فلسفيا وضعيا على أساس التنافر بين مقتضيات التفكير الوضعي(صليبا، ص577، 1979) من جهة، وضوابط الفكر الديني من جهة أخرى. وهذه المفارقة تزيد تعقيدا اذا ما تبين لنا أن السمة البارزة في الفلسفة الوضعية هي أن المعرفة لا تصبح علما الى اذا كانت قد بلغت المرحلة الوضعية في تطورها، لذلك كان هدف أ.كونت (1857-1798) هو انشاء العلم الوضعي بالمجتمع وتجاوز كل من الأفكار اللاهوتية والتصورات الميتافيزيقية. لكن ا يمكن لهذا الغموض ان ينجلي عندما نتبين طبيعة المقاربة الإبستمولوجية للدين والأسباب المقتضية لها فضلا عن تبيُّن مقاصدها والغاية منها.

ولعلنا هنا لا نجانب الصواب عندما نساير كونت فيما ذهب إليه في اعتباره أن "الدين" في أصله فطري لذلك يعد الانشغال بمسالة "الدين" موضوع نظر خصيب، وذلك بالنظر لمَا يمكن أن يترتب عن هذا الانشغال من مساءلة من شأنها أن تستغرق جميع مجالات الوجود الإنساني بكيفية يردّ معها التساؤل عن الدين إلى سؤال عن الإنسان؟. وعن كيفية وجاهة وجوده؟، وعن وجه العلاقة التي يمكن أن يضربها مع الأخر. بيدا أن وجاهة هذا الانشغال لا تقاس بالنظر إلى وضع مسالة الدين قيد النظر والمعالجة متجاوزين بداهة دلالته وبداهة الاطمئنان إليها فحسب، بل تقاس فضلا عن ذلك انطلاقا مما تفضي إليه هذه المساءلة من إمكانية مراجعة نقدية لما ترسب لدينا من تصورات بشأن حقيقة الإنسان، وبشأن منزلة ومهمة الدين لديه.

فإذا تبين لنا أن من شروط طرح إشكال الإنسان علميا عند أ. كونت في سياق إنشاء ابستمولوجيا فلسفية مغايرة لما عرفه الفكر الفلسفي حتى الآن. هو رسم خطوط الفصل بين العلم والفلسفة في اتجاه توضيح الفوارق النوعية بين اللاهوتي، والميتافيزيقي، والوضعي.

وفي هذا الإطار تندرج مقالتنا التي ستُعنَى في المقام الأول بتحديد طبيعة المقاربة الإبستمولوجية لفكرة "دين الإنسانية " لتخَلص في المقام الثاني إلى تحديد محدوديتها بالنظر إلى موقف التلقي منها.

هناك بعداني أساسيان يميزان طرح إشكال الديانة الإنسانية عند أوغست كونت:

أولهما، الصبغة العامة التي يكتسيها المشروع الإبستيمولوجي الكونتي فهو يتجاوز حلّ الإشكال الاجتماعي السياسي الفرنسي المترتب عن الثورة الفرنسية، كما يتجاوز إشكال إنشاء علم الاجتماع بصفته علما وضعيا يجعلنا نفهم "سكونيا" و"ديناميكيا" الحياة الاجتماعية وفقا لقوانينها الموضوعية . إنه يتجاوز ذلك كله ليصبح مشروع "إعادة التنظيم الأخلاقي". وثاني البعدين يفسر

بما أسلفنا. حيث أن المشروعَ العلمي الكونتي مشروعا ابستمولوجيا معرفيا بالأساس يستهدف بعث الإنسانية من جديد(Comte,1822) régénération finale de l'humanité.

ففي رسالة لصديقه "فالا" سنة 1818 صرح كونت بأنه ليس هناك شيء مطلق في هذا العالم، بل كل شيء نسبي(Comte,1844,54) ورغم هذا الإقرار كان الهدف الأسمى للفلسفة الوضعية positivisme -كما بين ذلك أوغست كونت- هو تأسيس ثقافة علمية كونية تجمع كل الإنسانية وهي ثقافة جديدة سمّها "دين الإنسانية". ولئن أعطاها هذا الاسم "دين الإنسانية"، فهو ينبّهنا الى أن "الإنسانية" هي أعظم شيء في الوجود يستحق التقدير، والإعجاب والإكبار. وهي عنده حقيقة ممتدة من الماضي البعيد إلى الحاضر ثم هي تنتقل عبر الحاضر إلى المستقبل((Comte,1996,37، حيث يضع المسارات للذات الإنسانية في منظور تاريخي باعتبار أن وجود الإنسانية عند أ.كونت ليس وجودا مجردا، بل هو وجود مادي حسي، يشارك في صنعه كل فرد من أفرادها ويسعي الى تحقيق غاياتها. وفي هذا الاطار نتبين أن رؤية أ.كونت العلمية، والاجتماعية، والدينية تجتمع كلها وتتلاقي في فكرة واحدة هي ابراز مبدأ الإنسانية التي تعد مركز هذه المفاهيم جميعا اعتبارا إلى أن آفاق الفلسفة الوضعية النهائي هو تأسيس الديانة الإنسانية ..من الواضح هنا أن كونت كان وضعيا فقط بمعني الالتزام بالاستقلالية الخطاب العلمي دون أن يكون هناك تنكر تام للاهوت والميتافيزيقا، -إن جاز لنا القول- إنها وضعية منهجية وليست مذهبية

1- 2- في ابستمولوجيا التحليل الديني

لقد اهتم كونت بالتأليف بين المنهج الذاتي والمنهج الموضوعي معتبرا أن كلا المنهجين (الذاتي، والموضوعي) خارجا الواحد عن الآخر وأن العلاقة بينهما هي شكل مخصوص من التأليف، وفي كتابه "نسق السياسة الوضعية" يؤكد على أن الصراع الذي كان في الماضي بين المنهجين (الذاتي، والموضوعي) أصبح اليوم أمرا منتهيا (Comte,1929,p445)، فبعد أن أسس تحليله في كتابه "دروس في الفلسفة الوضعية " على فكرة التعارض بين الدين واللاهوت"(Comte,1975,p39) تراجع عن هذا الإقرار عند دراسته لعلم الإحياء في سنة 1836، مبينا أن "الفلسفة الحقيقية هي التي توفّق بين المنهجين المتضادين، مصرحا بشكل أعمق أن مفهومي "الوضعية" و"الصنمية"(Comte,1929,p320) لا يختلفان إلا بموقفهما تجاه العالم، وبالتالي فإن "الصنمية" تَعتبر العالم وحدة تجريبية وملموسة، في حين أن هذا العالم في نظر "الوضعية" هو علم محوّل فهو اذا وحدة ملموسة ومجردة في آن وحد.

كما اقترح في الجزء الأخير من كتابه "نظام السياسة الوضعية " نظاما جديدا للدين الجديد معتبرا أن هذا التقارب بين مصطلح "الصنمية" والوضعية يشير الى إمكانية، بل الى ضرورة إدماج "الصنمية " في الوضعية وذلك ما كان يصفه بالمصالحة النهائية Réconciliation finale

(Comte,1929,p425)، ولكن تقتضي هذه المصالحة حدودا صارمة لابدا ما تأسيسها، فهيلا تعني مصالحة بين "اللاهوت " والوضعية بل ان كونت حصر هذه المصالحة في بعض عناصر الصنمية التي تتطور نحو صنمية جديدة فالصنمية التي يمكن قبولها هي التي تعتبر أن في العالم الخارجي توجد المحبة، ولعله من خلال فكرة التأليف يبين بأكثر وضوحا الفكرة التي نشأ منها مذهبه الفلسفي .

وبالتالي فإن كونت يركز في هذا السياق على الجانب الوظيفي المعرفي في الدين باعتباره الإطار الذي شكّل مرجعية لتفسير العالم. وهي المرجعية التي أتاحها الفكر لنفسه في طفولته المبكرة، أي في أوائل خطواته التاريخية. وفي أول مراحل نموه الفكري والاجتماعي. فكأن الإنسان عند كونت ينزع طبيعيا إلى المعرفة والتساؤل، كما هو عند أرسطو الذي يؤكد في افتتاحية كتاب "الميتافيزيقا على "إن الإنسان مفطور على حب الاطلاع ويرغب بطبعه في المعرفة"(Aristote,1879,p2).

غير أن الدين له وظيفة أخرى لا تقل أهمية على الوظيفة المعرفية، وهي الوظيفة الاجتماعية فهو العنصر الرابط بين مختلف أبناء المجتمع الواحد، باعتبار أن كل مجتمع يسعى إلى البحث عن التوازن من خلال قيم مشتركة. والدين هنا يلبي حاجة اجتماعية تتمثل في ربط الإنسان بالإنسان كما يقول المعنى الاشتقاقي لكلمة Religion أي Religare، حيث أعطى للدين وظيفة معرفية وأخري اجتماعية؛ فهو تفسير قبل علمي Pré- scientifique للكون وتمتين لمسار العلاقات الاجتماعية. وهذه الوظيفة الثانية هي التي يعبر عنها رمزيا وجود الكنيسة في المسيحية(Durkheim,1912,p65) أو "المسجد" في الإسلام. وبهذا الاعتبار يكون الدين هو الشكل المنظم، والمؤسساتي للمقدس، من جهة، وهو نمط لإنتاج المعايير الجماعية والوعي الاجتماعي من جهة ثانية. وهو بالتالي ما يضمن ويحقق الاندماج الاجتماعي.

وهذه الوظائف دفعت بكونت الى اعطاء الدين أهمية مخصوصة. حيث يشير الى أن الوظيفة المعرفية تقلدها العلم الذي عوض الطورين اللاهوتي والميتافيزيقي. أما وظيفة شدّ الإنسان إلى الإنسان داخل المجتمع الواحد، وشدّ المجتمع إلى المجتمع في المجموعة الإنسانية لا يكفي فيها العلم بل يرى أنه لا بد من شيء غير الدين المسيحي ليقوم بدور الرابطة العقلانية في الحضارة المعاصرة. وهذا الدور مؤكول إلى الدين الوضعي. لذلك يمكن القول بأوسع معنى ممكن أن الدين عند أ,كونت ملازم لكينونة الإنسان وليس مجرد لحظة في صيرورة تطوره التاريخي.

2- الإنسانية أفق الاجتماع الكوني

نقف مع أوغست أ.كونت على أمرا غاية من الأهمية وهو أن الفلسفة الوضعية ليست إلا بحث تمهيدي لديانة الإنسانية، وليس إصراره على ترسيخ فلسفة وضعية قادرة على إعادة تنظيم المجتمع والعقيدة، والنظام إلا تمهيدا لإقامة الديانة الإنسانية، وإنشاء سلطة روحية من شأنها أن

ترسخ مبدأ العيش من أجل الآخرين اعتبارا لمن يعيش لنفسه ولإرضاء أنانيته فهو قد أضاع الحياة. فدين الإنسانية سيحرر من المذاهب العتيقة وسيحفز إلى انجاز أعلى المثاليات الإنسانية ثم هو القاعدة التي سوف يرتكز عليها الجهد الإنساني من أجل تطوير ظروف وتحسين أحوال البيئة التي يعيش فيها. في هذا الإطار يقر كونت بأن الدين الوضعي هو الدين الحقيقي والمكتمل الذي سيحل محل كل النظم التي استندت إلى اللاهوت.

الإنسانية هي دائما لتعمل بغير تحديد، هي حركة، أو بالأحرى مبدأ، تبحث عن الهوية، عن الأخلاق العالمية التي ستجعل الحياة هادئة في عالم صناعي، الإنسانية لا تأخذ مكان الرب الواحد، وعبادة الآخر، الإنسانية هي رب يخلق نفسه بنفسه فهي الديانة التي جاءت لتعويض النواقص التي خلفتها الثورة السياسية في القيم الأخلاقية والمؤسسات التربوية. فالحب الكوني هو مركز الوجود الإنساني، إذ هو العنصر المنظم للتفكير والفعل(Comte,1846,p331)، من أجل ذلك يوكد أ.كونت على التكامل بين التفكير، والحب، والفعل(Comte,1845,p31).من هنا كان لابدا من الانتباه الى أن مقصد كونت هو اعتبار الدين مسالة دنيوية من دعامات المجتمع الأساسية، ومن العوامل الهامة في تطور البشرية لأنه رابطة الناس الدائمة، فإنقاذ المجتمع من الفوضى والاضطرابات وجب أن نهيئ لها دينا جديدا يقوم على حقائق ايجابية تحل فيه فكرة الإنسانية محل فكرة الله وهو الامر الذي يدفع الى التساؤل هل يعني هذا أن "دين الإنسانية" في الفلسفة الوضعية هو تعويض الإله الثيولوجيا.؟

رغم تأكيد أ. كونت على عدم تقسيم حياته الفكرية إلى مرحلتين فإن أتباعه يتهمونه باضطراب التفكير والتناقض حيث اغلب نقاد كونت اعتبروا أن كونت قد "خان" مبادئه الشخصية لأن المنهج الذاتي الذي تبعه في النصف الثاني من حياته الفكرية كان تدمير للنتائج الثمينة التي كان قد اكتسبها في النصف الأول من تلك الحياة الفكرية .حين استخدم المنهج الموضوعي. وأن مسالة الديانة الإنسانية التي جعلها كونت في موضع تقديس هي نظرهم- فكرة متهافتة، لأن أوغست كونت انتقل من الدين التلقائي الكشفي القائم على الوحي إلى نوع آخر من الدين هو دين برهاني، كما أنه تم الاستعاضة عن كيان مفارقي متعالي بكيان محايث.

وهنا يمكن الإشارة الى اعتراف شارلز Charles Maurras بأن كونت بتأسيسه لدين الإنسانية هو فعل يثير الضحك (p15,1903) كما اعتبروا أن فكرة "دين الإنسانية " قد أدت إلى تجاوز الحدود الصارمة للوضعية القائم بالأساس على التجربة والاستقراء وجعلت من كونت "قسّا" لهذا الدين الجديد . ولعله ذات الأمر الذي دفع كونغلهام بالقول أن كونت قد بدأ وضعيا وانتهي" فيتشيا" (Canguilhem1994,p148) على عكس الواقع التاريخي الذي قدمه عبر المراحل الثلاث. كما تدعم هذا الرفض خاصة في بريطانيا إذ أصبحت فكرة "دين الإنسانية" موضع نقد وتهافت

بلغ حدّ الاستخفاف وذلك من جهة التأكيد على أن هذا الضرب من الدين ليس سوى "كاثولكية بغير مسيح "تؤسس لصلاة من طبيعة وضعية. فهل الحداثة هي صياغة المفاهيم الدينية بوجه عام صياغة لائيكية ؟

في هذا المقام يمكن أن نأخذ فكرة الإثم la culpabilité عند سقموند فرويدFreud التي تعني التعويض(freud,1912) أو قل تترجم حديثا فكرة الخطيئة الأولى القديمة péché originale .فإن المرور من "الفكرة الدينية" إلى "الفكرة الوضعية" لا يكون دون ضرب من نقصان المعنى أو فقدان المعنى كما يقول هابرماس. وبالتالي فليس ثمة من ناحية وجدانية ونفسية ما يعوض العقيدة الدينية. وقد كان هيقل يقول إن قراءة الجريدة كل صباح تقوم مقام صلاة الصبح واقعي la prière d'un matin réaliste اذ كلاهما يجعلاني الفرد يدخل في علاقة مع العالم وكأنما هو يتحاور مع الكلي Universelle الذي يقوم هنا مقام الآلهة في العقيدة الدينية. ونحن نتساءل عمّا إذا ما كان المرور من العقيدة الدينية كوجدان يتساوى مع فكرة المرحلة الوضعية التي قد تكون فكرة لكن دون وجدان. كذلك فإن فكرة دين الإنسانية على أريحيتها النظرية لا يمكن أن تتطابق مع فكرة الدين السماوي أو حتى الأسطوري، فهناك ضربا من الغموض وعالم من الأسرار وكون من الخفايا تظهر كلها في فكرة "دين الإنسانية".

ومن هذا المنطلق نتبين التمييز بين اللاهوت الطبيعي، واللاهوت السماوي اذا أن اللاهوت الطبيعي هو ضرب من التفكير يبين أن التدين ظاهرة طبيعية، أي أنه يكفي أن ينساق الإنسان مع طبعه الفطري ليتصور أن كل كائن منظور يسنده كائن غير منظور، وأن كل ظاهرة حسية يختفي وراءها كائن غير حسي، أو فوق حسي أو فوق طبيعي Sur naturel . وبالتالي يخلص الفكر من تأمل هذا الموقف الطبيعي إلى إيجاد طقوس تصلح للتعامل مع تلك الكائنات الفوق طبيعية، وذلك انطلاقا من أن مفهوم العلم عند كونت يندرج ضمن تصور معرفي عام يتمثل في قراءته العلمية لمجمل التطور الفكري البشري، ولا سيما وأن وعي الشعوب الأوروبية في عصر أوغست كونت كان محكوما بهاجس تجاوز نمط الفكر الديني الذي يجب أن ينطلق فيه الفكر البشري بمراحل فكرية ثلاث (اللاهوتية، الميتافيزيقية، العلمية).وتبعا لذلك فإن الإنسانية تنتقل من الديانة التلقائية التي بدأت بها، إلى الديانة القائمة على البرهان التي يستقر عليها الفكر نهائيا.

حيث إن الفكر البشري تطور في مساره الطبيعي، والتاريخي عبر حركة تصاعدية تطورية تقدمية، من مرحلة لاهوتية، فمرحلة ميتافيزيقية، وذلك اعتبارا إلى أن الفكر الإنساني عموما، والفكر الإنساني الفردي يمران حسب Comte بالعقلانية الميتافيزيقية قبل الوصول إلى مرحلة النضج والكمال المميزين، وصولا للفكر العلمي الوضعي باعتبارها مرحلة تتساوق تساوقا تاما مع المرحلة الجديدة في الزمن الإنساني هي المرحلة الوضعية. على هذا الأساس نعلل إلى حدّ ما

التعارض بين ما هو موضوعي، وبين ما هو ذاتي. وعلى الرغم من التسليم بوجود هذا التعارض بين الدين والعلم فإنه يؤكد بضعة معاني جوهرية. وأصبح من الأكيد إعادة التساؤل عن المدى الحقيقي لهذا التعارض بين الدين والعلم؟

ولا سيما وأن تطور الأشكال الدينية - في نظر كونت يتوقف على التطور العقلي، بل يخضع له، بما يعني أن التقدم في معرفة قوانين الطبيعة يؤدي –حتما – إلى ثورة دينية، فرغم تأكيد كونت على أن الدين يمثل العنصر الأساسي للحياة الإنسانية فردية كانت، أو اجتماعية فهو مع ذلك مرتهن بالتطور العقلي، والعلمي، تبعا لذلك حذر كونت من فصل الدين عن العقل البشري بقوله: أن تطور العقل في النهائية يؤول إلى مرحلة لا يكون فيها للدين مكانا، بل العكس هو الصحيح فإن تقدم الإنسانية يقودنا إلى مرحلة ستكون دينية(Comte,1975,p12). معتبرا أن النزوع الديني ليس نقصا في فهم الطبيعة حتى يتم تخطيه بتحصيل الفهم العلمي الوضعي، بل إن السؤال الديني بطبيعته الغيبية الماورائية غير قابل للنفي، ولا للإثبات من مدخل إبستمولوجي علمي.

ونتيجة لذلك يبين أ.كونت أن الحاجة إلى الدين حاجة أساسية في الكائن الإنساني إذ أن النزوع نحو التقديس والتعبد هو باعتراف -كونت نفسه -أمرا يشكل جزءا من طبيعة الإنسان لذلك يصرح بأن مصير الإنسان هو أن يصبح أكثر تدينا وأنه "من الطبيعي تماما أن يكون تاريخ الذات الإنسانية قد بدأ بأوهام فوق طبيعية (Comte,1975,p18). وبناء عليه يؤكد كونت على تماسك الأفراد داخل المجتمع الذي يكونونه وذلك تجنبا للانفجار الذي يكون سببه أنانية بعض الأفراد. وهذا الانسجام الأخلاقي والعقلي والثقافي من شأنه أن يقاوم الانهيار الاجتماعي، ومن شأن الدين أن يرسخ هذا الانسجام والتوافق بين أفراد المجتمع الواحد، الدين في معناه الواسع والذي كعنصر جوهري ويعتبره الوسيلة المميزة للحفاظ عل اللحمة بين الأفراد.

1_2 الإنسانية موضع تقديس وعبادة

ان معنى الإنسانية هي ما يمتد من الماضي في الحاضر ويعد للمستقبل. ومن هنا جاءت أهمية الماضي عند أوغست كونت لأنه هو الذي يحدّد معالم الحاضر، وهو الذي يؤثر في معالم المستقبل بفضل سببية متصلة تتراكم بها الخبرات والتجارب تراكما يؤثر في مسيرة الإنسانية الفكرية، والأخلاقية والعملية . فمن وجهة نظر كونت أن دراسة الماضي بصفتها دراسة للحضارات المختلفة تعلمنا أنه يوجد كائن حقيقي وهو في نفس الوقت يتجاوزنا و يجذرنا، فهو يجمعنا ويكوننا في ما لنا من ايجابيات، هذا الكائن هو "الإنسانية"(Walter,2007,p231).

فما حقيقة مفهوم الإنسانية، ومفهوم دين الإنسانية المرتبط بها؟.

إن وجه الطرافة الأقصى الذي بلغ اليه كونت Comte في هذا الموضَع هو بلا شك إقراره بأن "دين الإنسانية " لا يوجد في الزمان، ولا في المكان باعتبار أنه يتصور هذه الإنسانية على هيئة "

الكائن الأعظم" Le Grand-Être، من هو هذا الاله؟ هي نوع من التجسيد لمثلى أو لقيم من مفعولاتها أنها تدفع الإنسان إلى التعالي عن الحيوان، وعلى المعطى الطبيعي عامة. ذلك أن فكرة الإنسانية بما هي "الكائن الأعظم" هي تجسيد للقوى الخلقية التي تنطوي عليها الطبيعة البشرية. ولذلك بات ممكنا القول أنه لا نكاد نجد فروقا كبيرة بين وظيفة الألوهية في الديانات القديمة، ووظيفة فكرة الإنسانية عند أوغست كونت(Étienne Gilson,1952,) حيث يجب أن تمثل بالضرورة المرحلة الوضعية مكانة ذهنية مساوية –إن صح الأمر- لتلك التي وصلت اليها المرحلة اللاهوتية.

إن المقصد هنا هو أن "التدين" لا يشكل عنده مدعاة إلى الإبقاء على الفكر اللاهوتي بل أن التدين الجديد "بدين الإنسانية" يقوم على تجاوز العصر اللاهوتي. وهنا نجد أوغست كونت يقترح وجود سلطة روحانية جديدة من شأنها أن تحل محل السلطة "البابوية" هدفها جمع الشعوب الأوروبية، بل وأكبر عدد ممكن من الأمم الأخرى في ظل التواصل الأخلاقي العالي المستوي" (Comte,1948,p323). فالغاية الأسمى لدين الإنسانية هو نشأة مدن صغيرة بدل الدول الكبيرة التي تسود العصر الحديث ويربط هذه المُدن فيما بينها دين عالمي هو دين عبادة الإنسانية "، وكأن أوغست كونت هنا يسعى إلى إحياء النظام القديم الذي أشار إليه أفلاطون. وأرسطو والفارابي أيضا وهو نظام المدن الصغيرة أو المدن الدولة التي لا يتجاوز عدد سكانها ستة آلاف ساكن (Barker,1925,p11).

وعلينا هنا أن ننبه إلى أن كونت لا يستخدم كلمة المجتمعات في أي موطن من كتاباته بل يقول دائما "الكائن الاجتماعي"، أي الكائن الوحيد الهائل الذي تمتد حياته امتدادا لا حد له في الماضي، وفي المستقبل والذي نستطيع التعبير عنه بكلمة واحدة هي كلمة "الإنسانية" باعتبارها "الكائن الكبير"، أو "الكائن الأعلى" بديلا نظريا وعمليا عن فكرة الكائن المتعالي الذي دانت له الكنيسة المسيحية. وهكذا نتبين أن التدين بديانة الكائن الأكبر هو تدين قِوامه خدمة الإنسانية في مجموعها، فالإنسانية في خدمة الفرد رغم غير فرديتها، فهي التي يتكّون منها هيكل الجسم الاجتماعي في تناغم مترابط.

وعلى هذا الأساس، فإن الفلسفة الوضعية الكونتية هي فلسفة إنسانوية قِوامها قيم المحبة، والتسامح، والإيمان بحق الإنسانية في الحياة، وهي تطمح إلى الكونية بحيث تهدف إلى جمع شعوب الأرض على اختلاف أديانها وثقافاتها يحكمها معيار "المحبة، النظام، التقدم"(Comte,1975,p65).

وإنّ الربط هنا بين المحبة، ودين الإنسانية هو ربط شرطي لابد من استفهامه. وهو أن قيم الإنسانية تُمكن الأفراد من العيش معًا في توافق في عالم يغمره "حب البشر"، الحب الكوني هو مركز الوجود الإنساني، إذ هو العنصر المنظم للتفكير والفعل. هو دين دون "اله"، ودون سيد،

أيضا، ولكن حيث يكون الإنسان نهاية الإنسان خلود الإنسان في الغير نوع حقيقي جدا من الوجود، وكأن كونت يقول بانسحاب الاله الديني وفك الارتباط مع الاله التوحيدي إذ أن الجانب البيولوجي في الفرد لا يعبر عن ذواتنا، بل في العقل والإرادة الطيبة، وفي الصفات التي تعبر عن العنصر الاجتماعي، أو الإنساني في كياننا. وإذ اندمج المرء في "الكائن الأعظم" فإنه لا ينفصل عنه.

وبالنظر إلى هذا التقدير يعتبر كونت أن الجمهورية الوضعية ليست لشعب دون آخر أو لأمة دون الأممْ. ولعل هذه النزعة الإنسانوية الكونية هي التي جعلت كونت يقف موقفا واضحا معاديا للسياسة التوسعية الأوروبية على الرغم من اعترافه أن الحضارة الأوروبية هي التي دخلت عصر الوضعية قبل غيرها. ومما يدعم هذا الموقف أن أ.كونت كان في الوقت ذاته ضدّ الاسترقاق وتجارة العبيد.

فإذا كان الاستعمار مُخلا بمبادئ الحداثة الأوروبية وما قامت عليه من قيم أخلاقية إنسانية، فإن الاسترقاق أكثر إهانة للكرامة الإنسانية، حيث أن كونت لم يكن الأول فقط في فهم الطابع الإنساني للدين ومن ذلك أعطاه معنى لصيق لصيغة الحب الأبدي، بل إنه قد جذر شعار للبرازيل والمكسيك(Lorelai, Kury ,2003,p125) بشكل خاص حيث قامت كنائس تدين بالوضعية positivisme وتدعو إلى التدين باسم "التآخي الإنساني"، وكان أنصار أ.كونت في البرازيل من دعاة تحرير العبيد مباشرة ودون تأجيل وضدّ دفع تعويضات لمالكي العبيد، بل على هؤلاء التجار أن يدفعوا لعبيدهم تعويضات عن سنين الألم، وعماّ جرح كرامتهم من سلوكيات مست من كرامتهم الإنسانية.

فإنتشر تبعا لذلك النشاط السياسي المناهض للعبودية بين القادة الكونتيين (نسبة إلى أوغست كونت) اللذين تمكنوا من إدماج التيارات السياسية والجمالية في توجههم، وهي تيارات لها قاعدة رومانسية مرتبطة بفكرة إنهاء العبودية، كما انخرطوا في ما يسمى: "دين الإنسانية" تأكيدا منهم على أنه لا مجال للعودة إلى الوراء في الصيرورة التاريخية وفي تطور العالم واعتقادا متفائلا منهم أن الإنسان هو أخ الإنسان قبل كل شيء، فليس هناك ثقافات عليا أو سفلى، بل هناك ثقافات مختلفة تُشْبِعُ كلٌّ منها متبعيها بطريقتها".(Kury Lorelai,2003,p12,)

وهكذا نتبين أن الموقف الديني المدافع عن ضرورة الحياة الروحية بعد تجاوز الروح اللاهوتي الكنسي ينتهي إلى موقف سياسي من الاستعمار، والى الدعوة الصريحة إلى احترام الاختلاف الثقافي فكأن الوضعية الكونتية هي الوجه الآخر لأوروبا الاستعمارية كما تجلى هذا الموقف في نشره 1884 نشر ليموس Lemos من النصوص الوضعية سنة 1884 حول العبودية جمَعها في كتاب عنوانه" الوضعية والعبودية الحديثة"، وقد احتوى هذا الكتاب مقتطفات من كتابات أوغست كونت يميز

فيها هذا الأخير بين العبودية القديمة التي تعَود فيها الإنسان على العمل والتي ساعدت التطور الشخصي من جهة، والعبودية الحديثة التي تمثل عاهة لا علاقة لها بالمجتمع المعاصر.

وهو الأمر الذي دفع بجوولیات قرانج الى بيان أن دين الإنسانية باعتباره دينا لا يحتاج إلى آلهة متعالية فوق طبيعية، ولا إلى ملك يدعي ساسة الناس بمقتضى حق الهي لا يتنافى البتة مع حياة روحية ولا يغنى عن الالتزام بقيم سامية"(p3,2003)، وهو المعنى الذي لخصه أوغست كونت في قولته الشهيرة "العيش من أجل الآخر". مؤكدا أن "الوحدة الإنسانية العظيمة الخالدة لها صفتان جوهريتان وهما "التضامن"، و"الاستمرار"(p256,1966). وهو يرى تبعا لذلك منتهى الأمر يكمن في أننا إذا ما اقتنعنا بأننا نعيش في الإنسانية وبالإنسانية فإننا سنقتنع بأنه يجب أن نعيش من أجل الإنسانية وللإنسانية. حيث تكون الإنسانية هي موضوع العبادة ويعيش من أجل الآخرين لا من أجل إله شخصي!، فالمرء لا يكون إنسانا إلا باشتراكه في صفات إنسانية وهي "الوحدة الاجتماعية العظيمة الخالدة التي حاول أ.كونت اثباتها في جُل مؤلفاته.

3-الخاتمة

ما نخلص اليه في خاتمة هذا البحث، هو التأكيد على أهمية الدين ودخوله في فلسفة أوغست كونت العلمية، والذي يبدأ أولا بتأكيده على أن فلسفته هي متصلة لا منفصلة، فلا وجود لمرحلة أولى من حياته الفكرية، ومرحلة ثانية، وأن تمجيد الإنسانية والاقرار بوجود دين كوني ليس إلا دليلا على وحدة فلسفته وترابطها حيث تحتكم الى منهج فكري تصاعدي مستمر. مستدلا على ذلك في الدرس الأول من كتابه" دروس في الفلسفة الوضعية" حيث بين أن المرحلة الأولى من حياته الفكرية قامت على تحويل العلم إلى فلسفة، والمرحلة الثانية أدت إلى تحويل الفلسفة إلى دين (p86,1975) .

وبهذا المعنى قد نخطئ في حق أ. كونت لو ذهبنا إلى أن" فكرة الإنسانية" تحل عنده محل "فكرة الإله"، بل إن الإنسانية لا تأخذ مكان الإله الواحدMonothéisme Dieu du، معنًّا أن الإله يبقى حاضرا في أفعالنا التي تبقى المحدد الفعلي لضروب الإيمان الديني، اعتبارا إلى أن الإيمان ليس معطى مطلقا، وإنما وحدها أفعال الإنسان هي التي تعطي معنى للإيمان.

وفي مجمل الامر نتبين أن الرهان أ.كونت هو استبدال فكرة الآلهة بفكرة الإنسانية بما هي فكرة "الكائن الأعظم"، أو "بالكائن الأعلى" وهو ما ينتج عنه استبدال شعائر عبادة الآلهة بما يسميه "خدمة الإنسانية" التي يضطلع بها مَن يسميهم "خدام الإنسانية"(Comte,1929,p236). وهو استبدال ضروري لتطور الفكر البشري وهو ما نقف عليه بالنظر في الفوارق التي يميز بها كونت "الأصنام" عن "الآلهة" القديمة. فالفرق عنده بين "صنم" و"اله "هو أن "الإله" له صفة أكثر تجريدا وأكثر عمومية". وقد حاولت جوليات قرانج أن تميز بين ما أسماه كونت بالكائن الأكبر

(الأرض)، والإنسانية (الاله الجديد) إن ذلك هو معنى النضج الفكري، والارتقاء من المحسوس المنظور "الصنم"، إلى الفكري اللامنظور "الإله"(Juliette,p255) .ولعل أ.كونت بهذا التمييز يكون حقق هدفه الأرقى وهو تأسيس دين يجمع الناس معًا.

إن نتيجة هذه الاعتبارات من تأسيس "دين الإنسانية" لأجل بيان أن هذا الدين الجيد هو ليس بمذهب ولا دين ولا ملة، بل هو نوع إنساني متجاوز كل التحديدات الزماكانية، خارج عن كل الأديان والمذاهب، لنقل أن دين الإنسانية هو نمط من المعيش منفلت عن كل التحديدات المذهبية.

**

قائمة المصادروالمراجع

- Aristote, (1879) La Métaphysique, Traduite en Français avec des notes perpétuelles par J,Barth lemy-saint, Paris.
- Cantecor Georges , Le positivisme, librairie P. Delaplane
- Comte Auguste ,(1929),Système de politique positive,Vrin, Paris
- Comte Auguste,(1846)Lettre de Comte a Clotilde de Vaux du 24 février.
- Comte Auguste,(1848), Lettre de Comte a Clotilde de Vaux du 24 février
- Comte Auguste,(1948), Discours sur l'esprit positif,Vrin, Paris.,
- Comte Auguste,(1966), Catéchisme positiviste , Paris,Garnier-Flammarion.
- Comte Auguste,(1975) ,Cours de la philosophie, positive ,Paris ,Hermann ,
- Comte Auguste,(2001,) Plan des travaux scientifiques nécessaires pour réorganise la société, (Mai1822) Paris, L'Harmattan .
- Durkheim (E),(1912) les formes élémentaires de la vie religieuse,P,U,F
- Dussauze Walter , (2007),Essai sur la religion d'après Auguste Comte, Préface d'Angèle Kremer-Marietti, L'Harmattan.
- Étienne Gilson, (2005)Les Métamorphoses de la cité de Dieu, 1952, éd. Vrin
- Freud, Sigmund ,(1915), cinqs leçons sur la psychanalyse, P,U,F
- Georges Canguilhem , (1994) , Etudes d'histoire et de philosophie des
- Juliette Grange,(1975) La philosophie d'Auguste Comte, Science, politique, religion, Paris ,P,U,F .
- Serres Michel, (1975)François Dagognet et Allal Sinaceur, (2 volumes Sociologie

Les Revues

- Barker, Irnest (1925) . Greek political ptheory: plato and his successors", second edition,London.
- Charles Maurras(1903) Auguste Comte, Revue Minerva, Paris, No 6, 15 mai .
- Grange, Juliette (2003),« L'humanisme intégral d'Auguste Comte », Revue d'histoire des sciences Humaines, N8.

• Helgio Trinde, « le positivisme politique mexicain »,in Angèle –Krémer--Marietti(Edit..),Auguste Comte :Trajectoires positivistes 1798_1998,Paris ,L'Harmattan ,2003

• Lorelai, Kury, « Nation, races et fétichisme: la religion de l'humanité au Brésil » , in Revue d'histoire des sciences humaines,2003.